المطر الأول

الحلم غزالٌ يرتاد تخوم الصحراء ..
والحزن سماء ..
هدأت عاصفة البحر ومقهى الريح ..
على كل الطرقات
يرجف والخوف نوارس مسحوره ..
أتصيّدها فتسيل على وجهي الشرفاتُ
وتغني الكأس المكسوره ..
هدأت عاصفة البحر
ووجهي في كفّ الريحْ ..

* * *

كنا نقرأ بوشكين ..
كان قطاراً يرحل صوب الشرق
والاشجار ..
تركض عائدة نحو البيت ..
لم نسأل عن اسمينا ..
كنا في النافذة المكسورة وجهين
حين بدأت تغني
انهمرت أمطار الرؤيا
وعرفتك حزنا أخضر يورق في الغابات
وحنينا بلّله المطر الاول
ورأيت الوجه العائد في النافذة المكوره
نصفين ..
حين انتهت الاغنية ، أدركت
ان على الارض سماء أخرى
حدّثت الاغنية عنها ..
فاحترق المزمار
« يا أعذب جرح في صدري
يا نبعا من نار .. »

* * *

كنا نقرأ بوشكين ..
وبقايا الصيف الراحل فوق ذرى الأشجار
حلم أو نار ..
والذهب الشاحب يخفق
في وجه الاسحار ..
اذكر لا اذكر
الا ريش الكروان الاحمر ..
رفّ على كف الحلم
وطار ..

* * *

كنا نقرأ بوشكين
كان قطاراً أتعبه الشوق
يرحل صوب الشرق ..
والاشجار ..
تركض عائدة نحو البيت
ونسيت ..
أذكر ..
لا أذكر الا بوشكين
والحلم الخائف في
وجه ..
الانسان

الموصل (العراق)

ارشد توفيق

وكانه يعي انه لا تملك ان تعارضها ، يدسها في جملة اعتراضية خاطفة وكانه بذلك يهون لك من شانها ، او كانها بديهية لا تستاهل حتى ان يضعها في قلب السباق . طوبه في الطريق ، يزيحها بقدمه ويمضي فلا داعي لان تتعثر فيها حتى تدرك سخفها وسماجتها . ففي سياق حديث طويل عن موسيقى زكريا احمد يستمر في وصف موسيقاه « لا يفرنك ابتداؤه بطبقة واطئة تخشى معها ان تلزم الارض ، انه سيرفع النغمة بعد قليل الى اعلى الطبقات فيتيح للصوت ان يكشف كل قدراته. حينئذ نخلق معه في السماء حتى تكاد قلوبنا تثب الى افواهنا من شدة النشوة (جميع اغانينا اليوم تلتزم الطبقات الارضية بلا تحليق) اذن لا بد من شيء من الراحة .. هذا هو الهنك والدنك يجيده زكريا ايضا .. التمايل معه يا حبيبي على الجنبين كاننا في حلقة ذكر الحان زكريا منبعثة من العاطفة والعلم والصنعة من تعاون حميد فلا غلبة لواحد منهاعلى غيره » (ص ١٥) وسط هذا الحديث يضع يحيى حقيقة خطيرة ولكن بطريقة ماكرة . فيها من حنكة الفنان وحساسيته الكثير « جميع اغانينا اليوم تلزم الطبقات الارضية بلا تحليق » حقيقة تمر بها وكانها بديهية .. وهذه الحيلة الماكرة تتكرر اكثر من مرة من الكتاب .. يقول في مستهل (يانصيب) « لا بد ان اجعل بدء كلا من استشاره تعجبك واستعبارك بمنظر هذا الرجل المنسق داخل جلبابه الرث .. فقد شبعنا من الاستعار الفارغ للمفارقات البينة ، للحكم السهل ومصمصة الشفاه ، الارض المطروقة ، عبرتها قبل قدمك آلاف الاقدام (لا يزال في ادبنا وبخاصة في شعرنا .. كثير من البريق الكاذب لمثل هذا اللت والعجن) » .. هذه حقيقة خطيرة اخرى يقدمها يحيى حقي لنا بنفس البساطة وبنفس المنهج .. وفي الكتاب من هذا النمط الكثير فيحيى حقي ولوج بالجمل الاعتراضية.. وهذا الولع في اعتقادي ابن التصاقه الحميم بالروح المصرية وباسلوبها الفريد في التعبير والتفكير .. وابن اهتمامه المتزايد باسرار اللغتين العامية والفصحى وفي الكتاب كنوز منها .. فهو كتاب ادبي من طراز فريد . يخدم النثر العربي ويحتفي باللغة العربية اجل احتفاء . يحقق فيه يحيى حقي دعوته الى التحديد اللفوي والى الحتمية اللغوية . ليس فيه شيء الا وموصوف باكثر من صفة تميزه عن عشرات الاشياء المشابهة . وتتواتر الصفات في بعض الاحيان حتى تبلغ السبع صفات او تزيد « رجل مماطل ، مخادع ، مراوغ ، مكبر ، غويط ، دحلاب ، ساه تحته دواه ، امي ولكنه في ترتيب الاشكالات القانونية ابرع من محام امام محكمة النقض » لا نظن ان هذه ترادفات يمكن ان تغني احداها عن الاخرى ، فلكل صفة دورها ومساهمتها في تحديد ادق تفاصيل الصورة . وفي بعض الاحيان تبلغ صفحات الوصف فيه حد الاعجاز . فهو يصف في اكثر من صفحة كاملة (ص ٧٤) فتحس وانت تقراه بانك امام ضرب من ضروب الاعجاز في اللغة والخبرة والملاحظة وهذه السمات الثلاثة ، الخبرة العميقة بالموضوع والملاحظة الدقيقة الحساسة له واللغة التي تصافح الشعر ، هي سمات هذا الكتاب الاصيلة ، بها ومن خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل ... كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل ..حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب الاصيلة ، بها ومن خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل .. كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل .. حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب هي ناطق الظل .. الفواحة بالتاريخ المثقلة بظل رؤى كثيفة . لا يجهضها الضوء في وسط المدينة . لا تدوسها الاقدام الغافلة دون ان تنتبه الى سرها الدفين ، لا ينال من ثرائها املاق المارة فيها ، بل يضفي على ظلها وظلالها .. ظلت كل شيء في العالم الذي يجوسه هذا الكتاب تسبح في مغيب دائم حتى قيض لها القلم الفنان الذي اراق عليها من ضوء فهمه وحساسيته دون ان يجهز على ما بها من سحر وشاعرية .

القاهرة

صبري حافظ